مستقبل التديّن في المجتمعات المسلمة: مقاربة للحالة السعودية

(محاضرة ألقيت في منتدى الثلاثاء الثقافي بتاريخ ٦ شعبان ١٤٣٨هـ الموافق ٢ مايو ٢٠١٧م

عبدالله حميد الدين

مفكر، وباحث، وخبير
سياسي سعودي

تناقش الورقة «مستقبل التديُّن في المجتمعات المسلمة» في ظل التحوّلات الاجتماعية والثقافية التي شهدتها تلك المجتمعات خلال القرن الماضي. وستركز على أمثلة من الحالة السعوديَّة باعتبارها الحالة الأقرب، ولكن ليس باعتبارها حالة فريدة أو مختلفة عن حالات مجتمعات أخرى.

كلنا يلاحظ أن هناك تحوّلات عديدة في مجال التديُّن، والمواقف تختلف بيننا بحسب وجهة المُراقب، فالمُراقب الأصولي يركّز على ابتعاد الشباب عن التديُّن بصيغته «الأصلية.» المراقب الليبرالي يُركز على زيادة التشدد والتطرف في بعض المجتمعات. المراقب الإصلاحي يهتم بتفاعل المجتمع مع الخطابات الدينية البديلة والتي يعتبرها معتدلة. والمراقب المتديّن روحياً وأخلاقيًا يهتم بتأثير الدين على استقرار الفرد وممارساته. والمراقب المحايِد - أو الذي يتبنى الحياد منهجياً[1] - يهتم بالوصف والتفسير. الجميع يحاولون التنبؤ بمسار التحوّلات ولكن الأطراف الأربعة[2] الأولى

(١) شخصيًا أميل للتحليل الذي يتخذ الحياد منهجًا، لأنه يمكننا وصف وتفسير الواقع بشكل أكثر دقة. طبعًا لا أعتقد أن الحياد الحقيقي مُمكنًا في مثل هذه القضايا الاجتماعية الثقافية التي تتصل بهويتنا وقيمنا وعلاقتنا بمن حولنا.

(٢) هذا التقسيم الرباعي غير دقيق وهو للتمثيل فحسب، وأظن أن كثيراً من الناس تتبنى خليطًا من المواقف.

تفكر بكيف ستؤثر تلك التحوّلات ـ سلباً أو إيجاباً حسب الموقف - على الواقع الفردي والاجتماعي.

بدايةً لا بد من تحديد أكثر لموضوع الورقة. يمُكن القول بأن هناك نوعان من التحوّلات في التديّن. الأول: التحوّل الظاهري: وهو ما نراه من أفكار جديدة وممارسات مختلفة بقطع النظر عن نوع تلك الأفكار والممارسات. وأغلب جدلنا حول التحوّل الديني يركز على هذا الجانب. وهنا نجد حالات مختلفة لا حصر لها في المجتمعات المسلمة بشكل عام وأيضاً في المجتمع السعودي. الثاني: التحوّل الأعمق: هو تحول في نوع العلاقة مع التديّن، ومن وجهة نظر هذه الورقة فإن هذا التحوّل هو أحد مكوّنات التحول الظاهري. الورقة تركز على هذا التحوّل.

محاولة وصف تحوّل العلاقة مع التدين يُفيد في معرفة العوامل التي تتفاعل لصناعة تحوّلات من النوع الأول خاصة في معرفة العوامل التي لا يمُكن الانفكاك منها، ولكن لا تفيد في التنبؤ بنوع التحوّل الظاهري. التحوّلات في العلاقة مع التديّن قد تؤدي إلى التطرف أو إلى ترك الدين أو إلى مراجعات ـ جذرية أو سطحية - للدين أو إلى تشكيل تديّن انتقائي... إلى ما هناك من الأشكال المحتملة التي يصعب حصرها.

فِهم ظاهرة التديّن والتحولات تعتمد على متابعة الجدالات التي تدور بين المسلمين العاديين ـ أو من يعرفوا بالعوام ـ سواء في الإعلام الجديد أو في المجالس الخاصة والعامة، وليس على متابعة القراءات المستجدة والمختلفة للدين. ولذلك سببين أساسيين. الأول لوجود هوّة بين ما يقوله المفكرون ورجال الدين وبين ما يقوله غير المتخصصين وغير المثقفين. والثاني والأهم، لكوّن التديّن في المجتمع يتشكل ويتحوّل بواسطة مجموعة من العوامل الاجتماعية والثقافية والنفسيّة، وما يقوله أو يكتبه المفكرون ورجال الدين ليس إلا جزءاً صغيراً من العوامل الثقافية،

وربما أضعفها. بل تلك الكتابات نفسها متأثرة بالتحوّلات الأعمق وربما تعبير عن بعضها.

للأسف لم ينل هذا الموضوع حظه من الاهتمام. فدارسوا ومفكري ومتخصصي الإسلام ـ حتى الغربيين منهم - ركزوا على قضايا التطرف، وجدل الدين والدولة، وتجديد الفقه، وكيفية استهلاك منتجات الحداثة، والتعايش مع المختلفين... إلخ من قضايا. والجدل الإسلامي - الإسلامي ركّز على التحوّلات المظهرية بين رافض أو مؤيد لهذه الفكرة أو تلك الممارسة. ولعل سبب ذلك هو التعامل مع التديُّن باعتباره قراراً معرفياً واعياً، وبالتالي تم التركيز على من يكتب أو يتخصص في الدين باعتبارهم ممثلي الحالة المعرفية الإسلامية. الورقة تفترض أن التديّن بالنسبة لأغلب أفراد المجتمع ليس قراراً واعياً بقدر ما هو انسجام مع منظومة ثقافية واجتماعيّة. يُمكن اعتبار بشيء من الحذر أن التدين قراراً فردياً وواعياً فقط بالنسبة لمن يكتب أو يُناقش في التديُّن بالاستناد لقراءةٍ ما للنص الديني، ولكن في المقابل لا يُمكن دراسة المجتمعات المسلمة من خلال دراسة مفكريها ورجال دينها.

سبب آخر أكثر احتمالاً هو كون الاهتمام بفهم الإسلام سواء من المسلمين أو غيرهم كان لأغراض سياسية واقتصادية وأمنية. بالتالي تم التركيز على المؤسسات والتيارات الدينية: مشاريعها ومن يُمثّلها أو يعارضها أو يُغيّر فيها: الدين والدولة، التطرف والإرهاب، التكفير وقبول المختلف، الحرام والحلال، الطائفية والمذاهب... الخ.

أخيراً قد يكون قلّة الاهتمام انعكاساً لأحد أهم وأوضح التحوّلات في العلاقة مع التدين، وهو تحوّله إلى هويّة: التدين صار هويّة وليس فقط وسيلة أو طريقاً إلى الله. وهناك تفاوت في هذا التحوّل بين فردٍ وآخر، ولكن يُمكن القول بأن بالنسبة لكل المسلمين فإن تديُّنهم صار موقفاً بشكل أو بآخر.

ولأن الهويَّة بطبيعتها سياسية، بالتالي صار التدين موقفاً سياسياً حتى بالنسبة لمن يقول إنَّه متديّن علماني.

التوتر بين المبادئ الدينية وبين الوعي الفردي

على المستوى الاجتماعي يمُكن القول بشيء من التجوّز أنَّه حصل نوعان أساسيان من التحول العميق في العلاقة مع التدين. الأول ما ذكرته للتو من تحوّل التديّن إلى هوية، والثاني تراخي الانسجام بل التوتر بين المبادئ الدينية وبين الوعي الفردي. وسأبدأ بالثاني لكونه ظاهرة كونيّة ونتيجة للتحديث الذي شهدته المجتمعات كافة.

الدراسات الدينية التي تناولت الحداثة والتحديث في المجتمعات المسلمة كانت معيارية وركزت على «فقه الحداثة والتحديث» ووصفت درجات القبول والرفض للحداثة والتحديث. في المجتمعات الغربية كان هناك مواقف معيارية لا شك ولكن نجد أيضاً اهتماماً بدراسة وصفيّة عن أثر التحوّلات في البنى الاجتماعية والمصالح الفرديّة والقيم الجديدة على التديّن. وقد تم التعامل مع المجتمع والفرد بوصفهما مكوَّنين من عدة عناصر متفاعلة، واعتبرت الدين والتديّن عنصراً بينها. ثم سألت: بما أنَّه حصلت تحوّلات جذرية في كثير من العناصر الاجتماعية والنفسية؛ فما الذي سيحصل للدين للتديّن؟ هل التغيّر في الأولى سيؤدي إلى تغيّر أم انعزال أم انفصال أم أمر آخر في الثاني؟ وكان هناك عدة أجوبة، وهذه بعضها:

- الدين في مجتمعات ما قبل الحداثة كان يُسهم في تماسك المجتمع. ولكن التنوع الوظيفي في مجتمعات ما بعد الحداثة أفقده هذه القدرة. وبالتالي ظهرت أشكالاً جديدة من «التديّن» للقيام بهذا الأمر كالوطنيّة وطقوسها.
- الدين تعبيرٌ رسميٌ عن روح المجتمع في لحظة ما، ويشكل منظومة المعنى بالنسبة له في تلك اللحظة. روح المجتمع

ومنظومة المعنى فيه في تطور مستمر مما يخلق توتراً متواصلاً بين الدين الثابت وبين المجتمع المتطوِّر. هذا التوتر قد يؤدي إلى صراع بين المجتمع وبين الدين أو إلى تغيير في الدين أو إلى تكيّف الطرفين. التكيّف هو الذي كان يحصل بسبب الاستقرار النسبي للقيم الاجتماعية وروح المجتمع. ولكن الحداثة كانت قفزة كبيرة تتجاوز قدرة أحد الطرفين على التكيّف مع الثاني مما أحداث حالة انفصال بين التديّن وبين روح المجتمع والمعنى ودفع الطرفين إلى الصراع والتغيير. وهناك عبارة تلّخص هذا: «الحياة الدينية يجب أن تخاطبني ، يجب أن تكون معقولة لي» وإلا فإن الدين يفقد معناه بالنسبة لي.

محاولات تفسير الشر مثال لهذا. في السابق كان قدر الشر الذي يراه أو يسمع به الفرد متناسباً مع التفسيرات الدينية الموجودة. مع اتساع التواصل الإنساني اتسع قدر الشر الذي يصل للفرد، ولم تعد التفسيرات الدينية قادرة على استيعابها.

مثال أبرز لهذا هو الانفصال بين الرؤية الكونية الدينية وبين الرؤية الكونية العلمية، والتي كان حلها الرفض او البحث عن توافق او إعادة تفسير الرؤية الكونية الدينية.

التدين وسيلة للتعامل مع كوّن يتماهى فيه عالمي الغيب مع الشهادة. في هذا العالم لم يكن هناك قُوى محايدة، بل قوى شخصية ـ طبيعية أو غير ذلك - تتفاعل مع أعمال الإنسان، وتتدخل في عالمه وحياته، وتستجيب له بشكل مباشر. ولكن الحداثة العلميّة أحدثت انفصاماً حاداً بين العالمين وصار التديَّن محصوراً في التعامل مع عالم الغيب والعقل والتجربة للتعامل مع عالم الشهادة.

- الدين يحتاج إلى استقرار في الذاكرة الجمعية لكي ينتقل من

جيل لآخر. وهذا كان متوفراً في المجتمعات التقليدية قليلة التنقل والسفر والانفصال عن العشيرة أو القبيلة وحضور الرواية الشفاهية. ولكن التحديث فكك المجتمع بحيث صار منتجاً لعدة ذاكرات وليس ذاكرة واحدة فحسب.

استمرار التقاليد يعتمد على الثقة العالية بأنَّها حق، وهذا يعتمد على نشأة الفرد في مجتمع غالبيته ـ أو غالبية من يعرفهم ويتفاعل معهم ـ يؤمن بتلك التقاليد. في المجتمعات الحديثة ينشأ الفرد منفتحاً على كافة المجتمعات، وصار الفرد يرى نفسه أقليّة مما يُضعف ثقته بتلك التقاليد.

هذه النظريّات المختلفة لا تستطيع التنبؤ بوجهة فرد بعينه فضالً عن مجتمع، ولكنَّها تطرح احتمالات منها: رفض الدين كليّة واعتبار الرفض موقفاً، صناعة دين جديد، حصر دور الدين في التعامل مع الغيب وفي الأخلاق، التطرف الديني كرد فعل رافض أو خائف من تلك التحوّلات، التشدد الديني باعتباره صار تديُّنا صرفاً غير مختلط بالعوامل الاجتماعية الأخرى بالتالي غير مراعٍ لها، الانفصال العفوي عن التديّن من دون اتخاذ موقف من الدين...

ولكن في حين لا تتنبأ تلك النظريّات بما سيأتي فإنَّها جميعاً متفقة على حدوث تحوّل عميق وشامل في العلاقة مع الدين، وقد لخصته أعاله بـ: التوتر بين المبادئ الدينية وبين الوعي الفردي.

وللأسف لم توجد دراسات كافية عن هذه العوامل في المجتمعات المسلمة، حيث ركز أغلبها على بعض الاحتمالات الممكنة نتيجة لتلك العوامل، والتركيز الأغلب كان على الإلحاد وعلى التطرف.

تحول التديّن إلى هويّة

المجتمعات الإسلامية كغيرها مرت بتلك التحوّلات، وال شك أنَّها تفاعلت فيها. ولكن الخطاب العربي والإسلامي كان مشغولاً بأمر آخر: الحفاظ على الذات. فالحداثة أتت على ظهر دبّابة

إلى المجتمعات المسلمة، بالتالي كان تركيزها الحفاظ على التمايز الثقافي أكثر من التدين الروحي. هذا الهمّ هو الذي سيحوّل الإسلام إلى هوية أكثر من كونه تديّناً في الخطاب الإسلامي المعاصر. وهذا يتجلى في الجدل حول العلاقة بين الإسلام والغرب بأغلب مراحله. المرحلة الأولى - نهاية ق١٩وبداية القرن ٢٠ - سعت إلى إيجاد توافق بين الغرب وبين الإسلام بحيث يُمكن الحفاظ على أصالة الإسلام في الوقت الذي نتقبل الغرب.

المرحلة الثانية رفضت التوافق وسعت للانتقاء، أو بعبارة للمودودي: نعم للتحديث لا للتغريب. وهذا تبسيط لما جرى، ولكن المهم أن كافة المحاولات كانت تحاول الإجابة على سؤال: كيف نستوعب الحداثة مع الحفاظ على الذات؟ وجدل الأصالة والمعاصرة هو إفراز لهذا.

البحث عن الأصالة كان عنوان كافة ردود الفعل على الوجود الغربي. القومية شكل منها والإسلام السياسي شكل آخر. وقد تحوّل الإسلام إلى مصدر للأصالة مما حوله إلى هويّة. من الأمثلة الجيدة لهذا هو الحجاب. فبعد أن كان ممارسة دينية أو تعبيراً عن تديّن تحوّل إلى شعار سياسي وهويَّة ثقافية. وخطابات شمولية الإسلام هي بطريقة ما انعكاس للبحث عن الأصالة أكثر من كونها تعبيراً عن التدين.

التحوّلات في التديّن في السعودية

التديّن في السعودية يشبه التدين في المجتمعات المسلمة الأخرى، والتحوّلات في التدين ستتأثر بالعوامل التي أثرت على التديّن في مجتمعات أخرى. هناك بعض اختلافات مهمة في طريقة تمظهر التدين في السعودية، يُمكن تلخيصها بعبارة «أحب الصالحين ولست منهم.» ومع أن هذا شعار كثير من المسلمين ولكن بسبب الضغوط الاجتماعية في السعودية فإن الفرد السعودي قد يتغيّر بشكل فردي ولكن يرفض التغيير بشكل علني أو على

المستوى الاجتماعي. مرة أخرى لا توجد دراسات كافية لفهم هذه الظاهرة. لكن هناك دراسات عن هذه الازدواجية في مجتمعات متدينة أخرى ذات نظام اجتماعي صارم، ويظهر منها التشابه الكبير في الممارسات.

يُمكن تفسير هذه الازدواجية لكون المجتمع السعودي عامة لا زال يرى أن الدين هو الضامن الأساسي لتماسك النسيج الاجتماعي والهوية الجامعة للسعوديين. بالتالي يتم تقبل المخالفات الدينية الفردية ولكن بشرط أن لا تؤثر على النسيج الاجتماعي أو الهويّة. وهذا قد يفسر ردود الفعل القاسية التي يتخذها بعض الأفراد ـ حتى غير المتدينين ـ ضد من يُشهرون مخالفات دينية. المسألة ليست بالضرورة مجرد إنكار ديني بقدر ما هو خوف على المجتمع. هذا خاص بالسعودية، وقد يستمر إلى حين تُصبح الهوية الوطنية مصدر تماسك النسيج الاجتماعي والهويّة الجامعة. هذا سيتطلب بعض الوقت لأنه إلى فترة قريبة كان هناك تحذير ديني من فكرة الهوية الوطنية، لعل أبرز تجلّياته هو رفض الاحتفالات باليوم الوطني، والأدبيات الدينية المصاحبة التي تؤكد على ضرورة أن تكون الهوية الإسلامية وحدها الهوية الجامعة وأساس تماسك النسيج الاجتماعي.

في كل الأحوال، فإن اختلاف تمظهر التدين في السعودية على المستوى الاجتماعي لا يعني بالضرورة أن هناك اختلافاً في تأثّر المجتمع السعودي بالعوامل أعاله أو غيرها من العوامل. فالتديّن الذي يُناقش هنا هو التدين الفردي وليس تمظهره والذي هو حالة اجتماعية.

لا نملك مادة كافية لمناقشة تاريخ التحوّلات الدينية في السعودية. ولكن هناك بعض المظاهر التي تدل على وجود هذا الأمر. مثال بين الخمسينات وبداية السبعينات كان هناك نشاط واسع لحركات يسارية عديدة. ومع أنه لا تتوفر مادة كافية عن

موقف اليساريين من الدين، إلا إن هناك ما يكفي ليدل على وجود أسئلة جذرية حول الدين. أيضاً يُمكن اعتبار كتابات عبدالله القصيمي ـ ولو أنَّه فرد -ممثلة لشريحة ولو صغيرة ونخبوية من المجتمع السعودي والذي كان يسعى للحصول على كتبه.

شعبية أشخاص كإبراهيم البليهي وتركي الحمد قد تدل أيضاً على تحوّلات من نوعٍ ما، خاصة أن الآراء التي اشتهرا بسببها تُعتبر نقداً جريئاً ـ كل بطريقته - لطريقة التديّن بين المسلمين عموماً. ثم هناك دراسة عن السعودية قالت بأن ٥٪ من السعوديين وصفوا نفسهم بأنهم ملحدين و٢٠٪ تحفظوا على وصف أنفسهم بأنهم متدينين. مشكلة هذه الدراسة أنها تعتمد على طريقة السؤال وبالتالي لا تفيد لوحدها وتحتاج إلى تفاصيل.

المادة الحقيقية لفهم التحوّلات الدينية في السعودية لم تتوفر إلا مع ظهور الإنترنت وتأسيس المنتديات والتي شهدت للمرة الأولى نقاشات بين سعوديين متخصصين وغير مثقفين حول قضايا التدين. طبعاً لا يمكن استخدام وسائل التواصل الاجتماعي ـ كتويتر أو فيس بوك - لفهم المجتمع بشكل دقيق، ولكن يُمكن استخدامه لإدراك وجود تحوّل يتجاوز حالات فردية.

أمثلة من الحالة السعودية

مع أنَّنا لا نملك مادة لتحليل دقيق وعميق إلا أنَّنا يُمكن مناقشة بعض الأمثلة التي تعكس التحوّلات الحاصلة، ويُمكن لأغراض هذه الورقة الاقتصار على بعض الآراء في تويتر. وما يلي عرض إجمالي لآراء تُعكس كلها بشكل مفرد أو إجمالي حصول تحوّلات متعددة على المستوى الظاهري. بعض مضامين التغريدات يُمكن اعتبارها خروجاً عن الإسلام وفق تعريفات التكفير التقليدية وبعضها انتقاداً لبعض المظاهر السائدة في الإسلام.

- في تويتر نجد تغريدات تؤكد على مرجعية الفرد في معرفة القضايا الدينية ونقد ضرورة العودة إلى العلماء.

- هناك انتقاد لكثرة أحكام التحريم التي يُطلقها العلماء، وعلى وجه الخصوص انتقاد فكرة سد الذرائع.
- هناك مغردون يحكمون على أمور بأنها من الإسلام وأخرى ليست من الإسلام.
- هناك من يقول بأن التحريم يُربك الحياة ويمنع الناس من الاستمتاع بالأمور البسيطة.
- هناك انتقاد لبعض الأحكام الشرعيّة باعتبارها عبئاً، انتقاداً يُمكن وصفه بالاستحلال.
- هناك من ينتقد التقلبات في فتاوي المشايخ. تغريدة عبدالله المديفر عن حرق أمه لصورها ثم رؤية صورهم في كل مكان أعيد تغريدها أكثر من ١٥ ألف مرة. ومقالة خلف الحربي «يسرقون أعمارنا ثم يعتدلون» تم تداولها آلاف المرات.
- هناك مقارنات بين علماء الدين وعلماء الطبيعة، ولصالح الفئة الثانية.
- هناك الجدل حول فقه المرأة وانتقاد ما كان يُعد ثابتاً فيه. ونجد في هذا السياق تأكيد على قيمة التساوي بين الرجل والمرأة وتطبيق هذه القيمة على الفقه الحالي. أيضاً في هذا السياق نجد من ينتقد التركيز على قضايا المرأة وإهمال القضايا الاجتماعية والاقتصادية الكبرى كالفقر والفساد والبطالة.
- هناك انتقاد لفكرة احتكار الجنة سواء على مذهب واحد، ولكن البعض أيضاً اعتبر أن حصر الجنة للمسلمين خطأ كما في الجدل حول مصير نيلسون مانديلا.
- هناك أيضاً إثارة أسئلة جذرية كما في هاشتاق سؤال منطقي لا حد يكفرني.

من المهم ملاحظة أن كافة مواضيع التغريدات قد كتب فيها

عـدد مـن المفكريـن وبالتـالي ليسـت لافتـة مـن حيـث المضمـون. اللافت هو منطق عرض هذه القضايا. وهذا المنطق هو تحديداً ما يعكس التحوّلات. آلاف التغريدات لم تُكتب انطلاقا من موقف علمي وإنما من موقف شخصي. لا تعكس توتراً بين قراءتين مختلفتين للنص الديني بقدر ما تعكس توتراً بين نص ديني وطريقة تفكير شخصية. وهنا المربط. مثالً من تنتقد الحجاب لا تنتقده بالإحالة إلى قراءات للنص تفيد بأن الحجاب بشكله الحالي ليس من الإسلام وإنما تنتقده ألن الحجاب ينافي في رأيها مبدأ العدالة أو ينافي منح المرأة فرصة الاستمتاع بالحياة أو غير ذلك. بعض من يناقش القضايا الدينية لا يميز بين القرآن وبين الحديث، ولا أقولها انتقاصاً منه/ا وإنما لكي أبيّن أن الآراء الدينية التي تتشكل يبدو أنها صارت نتيجة اختيارات خاصة وليس إعادة قراءة للدين. وأكرر ما قلته التحوّلات لا تعني بالضرورة رفض التدين أو الإسلام. بل أغلب ما سنجده يؤكد على أهمية الأمرين. التحوّلات تعني تحوّل في العلاقة وفي المعيار.

تويتر يُخبرنا بأن هناك تحوّلات، ولكن لا يفيد في معرفة أسباب تلك التحوّلات. هذا يتطلّب حوارات طويلة ومعمقة مع أفراد مروا بتحوّلات دينية. من خلال تلك الحوارات وجدت العوامل التالية:

١. **حل عقدة الذنب: كان البعض يشعر بالذنب من ممارسات المعاصي، فكان الحل بالنسبة له هو أن لا يعتبرها معاصياً. (هذه العقدة قد تجعل البعض يتحوّل إلى التطرف، وهناك آخرون يميلون إلى عقيدة الإرجاء).**

٢. **التوتر بين الدين كما هو مفهوم وبين الذهنيات الشخصية: لعل هذا أبرز عامل وجدته. مثلاً هناك من قرر إعادة قراءة الإسلام بسبب الموقف من الرق. الذهنية الشخصية كانت ترى أن الرق غير مقبول مطلقاً، وبالتالي ارتبكت من وجود رق في الإسلام. البعض سعى للقول بأنّ الإسلام أراد**

إلغاء الرق والبعض الآخر ذهب إلى تفسيرات أخرى، ولكن المشترك بينهم هو نشوء قيمة أخلاقية جديدة صارت حاكمة على فهمهم للنص الديني.

٣. **التوتر بين الإسلام والإسلام:** الاختلافات الكبيرة بين الفقهاء قلّلت من الثقة التامة بالعلماء وبالتفسيرات السائدة للنصوص. دفعت البعض للتسامح مع المختلف ورْفض فكرة الولاء والبراء، وآخرين للقول بالنسبية المطلقة.

٤. **البحث عن إسلام أسهل:** هناك من رأى بأن الأحكام الفقهية تقيّد حياة الفرد في الوقت المعاصر، وبالتالي وجد البعض أنفسهم يتنقلون من شيخ لآخر بحثاً عن صيغة أسهل للإسلام. في هذا التقلّب كانت الذهنية الشخصية معيارية. في الأخير تم الاستقرار على صيغة من الإسلام ولكن ليس من منطلق البحث والقراءة ولكن من منطلق توافق الصيغة الأخيرة مع ذهنيته الشخصية. هذه الممارسة معروفة باسم الترخص ومرفوضة من الفقهاء.

٥. **معضلة الكافر الطيّب:** أكثر من شخص لم يستطع استيعاب أن الكافر الطيب سيدخل جهنم. الملفت في القصص التي سمعتها أن فكرة دخول الكافر الطيب إلى النار كانت مقبولة لمن لم يتعامل بعمق مع إنسان كافر. الكافر بالنسبة له كان فكرة مجردة إلى حد ما، صورة يراها ولكن لا يعرفها أو لم يجربها. بعد المعرفة عن قرب بالكافر وجدوا أنفسهم عاجزين عن الجمع بين كونه طيباً وبين كونه يستحق الجحيم.

٦. **التأملات الفلسفية والقراءات الفكرية: الأقل ممن رأيت وصف تغيره بالإحالة إلى كتب قرأها أو إلى معضلات فلسفية غاص فيها.**

والذي لاحظته هو:

١. قصص التحوّلات كانت عادية. بمعنى أنني كنت متوقعاً أنني سأسمع قصصاً عن أزمات روحية أو عن عواصف فكرية ولكن ما سمعته في الغالب كان بخالف ذلك، مما يوحي بأن مؤثرات التحوّل كانت هيكلية وليس فردية.

٢. التغييرات كانت شخصية، أي ليس بتأثير من آخرين. طبعاً هذا لا يعني أن التأثير غير موجود، ولكن يوحي بأنَّه لم يكن مهماً بحيث يتم الإشارة إليه. بعبارة أخرى لم يكن هناك انبهار بشخص أو اتباع لآخر. وهذا أيضاً يمكن تفسيره منظومياً. الفرديّة ـ وإن رفضها البعض أخلاقياً ـ صارت واقعاً.

٣. أمر ثالث لفتني هو أن الغضب من المؤسسة الدينية لم يكن عاملاً حاسماً، بل لم يكن حاضراً لدى الكثير ممن تحدثت معهم. هذا بخلاف تويتر حيث الغضب من المؤسسة الدينية يأتي بارزاً.

٤. لافت عفوية العلاقة مع الدين، بمعنى أنهم لم يكونوا معنيين بالبحث طويلاً في هذا الأمر.

٥. جميعهم شعروا أن الدين بصيغته التي عرفوها لم يعد يعبر عن قيمهم.

٦. هناك اشتراك في عوامل التحول واختلاف في مآل التحوّل.

٧. أزمة العلم والدين لم تكن حاضرة كعامل. كانت معلومة لهم ولكن يبدو أن الرؤية العلمية للكون كانت مسلمة بطريقة لم تخلق توتراً بخالف القيم المعاصرة. ربما لأننا لا نتربّى على رؤية كونية مختلفة في حين نتربى على منظومة قيمية مختلفة.

٨. العلاقة مع التديّن ليست نتيجة عملية فكرية عميقة.

قبول أو رفض بعض القضايا الدينية كان بسبب التوافق أو الاختلاف مع ذهنية شخصية بدون مراجعة نقدية لكيفية تكون ذلك الذهنية.

ثم ماذا؟

خلاصة ما سبق أن هناك تحوّلين في العلاقة مع التديّن. الأول نشوء التوتر بين المبادئ الدينية وبين الوعي الفردي والثاني تحوّل التديّن إلى هوية وبالتالي تسييس التدين.

التحوّل الأول قد لا يمكن تغيير مساره لأنه نتيجة لعوامل قاهرة وشاملة، لكن يمكن التأثير على بعض نتائجه. ذكرت أولاً أن النتائج هي بسبب تفاعل تلك العوامل مع الحالة الثقافية للفرد. بالتالي إذا لم يُمكن التأثير على العوامل فيُمكن التأثير على الحالة الثقافية للفرد. والسؤال الذي تصعب الإجابة عليه: أي ثقافة؟ قد يقول البعض إنَّه لا بد من التركيز على مظاهر التغيير ـ كتلك التي في التغريدات.

هذا مفيد، خاصة لو كان على شكل حوارات مفتوحة. ولكن أظن الأهم هو البدء بالأسباب التي يذكرها من مر بالتحوّلات ـ ذكرت بعضها - عند شرح تحولاتهم. الثقافة التي أتحدث عنها يجب أن تتفاعل مع تلك الأسباب.

التحوّل الثاني مختلف. هذا يُمكن تغيير مساره في المجتمعات ذات الأغلبية المسلمة لأن السياق الذي دفع بعض المسلمين في تلك المجتمعات نحو اعتبار الإسلام هويّة سياسية قد ضعف كثيراً، وموضوع الأصالة والمعاصرة لم يعد حياً كما كان سابقاً. لكن قد يصعب تغيير هذا بين الأقليات المسلمة والتي تّوظف الهويّة الإسلامية في الحصول على مكاسب سياسية وأيضاً في خلق ترابط حزبي أو تنظيمي. طبعاً يبقى السؤال: هل التغيير هذا مطلوب أم لا؟ رأي الورقة هذه هو: نعم... لأن التديَّن أساساً هو لربط الفرد مع الغيب، وليس لخلق علاقات سياسية أو حزبية.

مُنتدى الثلاثاء الثقافي

Thulatha Cultural Forum